في دور كوريكالزو التي تقاوم الفناء

احمد الاخرس

اخرجت جنان فاضل محمد ، منقبة الاثار رأسها من الغرفة الخارجية في منزلها الذي يقع وسط مدينة عقرقوف ،كانت تنظر الى تلك النجمة اللامعة في السماء ،والتي شكلت منظرا ساحرا فوق قمة الزقورة التي يرجع تاريخها الى عام ١٣٤٥ قبل الميلاد ،كان ذلك المنظر يعجبها كثيرا ، وانها تتعجب منه في كل مرة تراه ،فقد شاهدت المنظر نفسه في رقم ورسوم طينية عديدة من قبل ،هل ان اولئك القوم الذين شيدوا تلك المدينة ،كانوا حالمين الى هذا الحد ؟

جنان فاضل في الاربعينات من عمرها ،خريجة كلية الاداب – قسم الاثار في عام ١٩٨٦امرأة ذات شخصية مميزة،تسكن مع عائلتها الكبيرة التي تتالف من ثمانية اولاد،في منزل منعزل عن جميع الناس، تعود ملكيته الى الهيئة العامة للتراث والاثار ،اما زوجها فخريج معهد تكنولوجي ،يعمل حاليا في سوق ابوغريب، في بيع المواد الغذائية.يعيشون جميعا في بيت واسع ذي سياج منخفض يشرف على اجزاء المدينة كلها،وكانما هو بني لاجل هذا الغرض .

في ايام الشتاء هذه وحينما كان المطر ينهمر بشدة ،كان يغسل التاريخ المحفور على مواقع المدينة الكاشية الموغلة في القدم،والذي يمتد الى اكثر من ثلاثة آلاف عام ،بل كأنه يحاول ان يذيب تلك الكتلة الطينية العملاقة التي انتصرت عليه ومازالت منذ ذلك الوقت.

وبعد ان يتوقف المطر ،كانت منقبة الاثار تخرج الى فضاء المدينة لتشاهد ان قمة الزقورة قد جفت وزالت الرطوبة عنها قبل جميع اجزائها، هل يمكن تصور مثل هذه الظاهرة العجيبة؟ قد يرجع السبب في ذلك الى وجود تلك الثقوب العديدة والتي تخترق اجزاء الزقورة او المعبد العالي ،بعد ان يأخذ الهواء بالنفاذ عبر تلك الفتحات الكثيرة فيها ،فيجفف مابقي من مياه الامطار،يالعبقرية اولئك القوم!!

اخذت تتجول في المدينة الاثرية ،وهي عادة لاتفارقها ابدا لتحاول ان تنسى صعوبات ومشاكل الحياة اليومية،وتمارس عملها الذي تخصصت فيه.كانت تتمعن في اسم المدينة القديم دور كوريكالزو ،وملكها الكاشي كوريكالزو الاول.

الزقورة-المعبد العالي

اخذت تنظر الى الزقورة الشامخة او المعبد العالي والى صرحها المدرج ،ان تلك (اللبة)المشيدة من اللبن،قد قاومت وماتزال منذ آلاف السنين ،ولم تكشف بعد كل اسرارها، حتى المعهد الايطالي الذي ارسلت اليه بعض من اجزاء ذلك اللبن الذي شيد منه ذلك المعبد، ليتم فحصه ومعرفه ماهية الخلطة الطينية ،قد فشل في ذلك !!قد تكون خلطة سرية من الطين اللازب والقصب وشعر الحيوانات!

ارتقت السلم الوسطي المؤدي الى اعلى المعبد ،عندما وصلت هناك ،اخذت تتلمس بيدها اجزاءً من اللبن الخشن ،انها تشعر بأحاسيس غامضة وهي تلامس كل ذلك التاريخ، كانت تتأمل القمة التي ارتفعت عن السهل بحوالي ٥٧ مترا، ولربما كان ارتفاعها الاصلي اكثر من ذلك ،اما عدد طبقاتها فلا يعرف احد ذلك ،قد تكون ثلاثة او قد تكون سبعة كما في برج بابل الشهير،هل ارادوا مثل البابلين ان يصلوا الى السماء فعاقبهم الإله.

لقد شيدت على شكل سافات من اللبن ، وطبقات البواري (حصير القصب) فيها موضوعة في البناء بين كل ثمانية او تسعة سافات،وهنالك ثقوب مربعة كثيرة تخترق كتلته.

اما قاعدة ذلك المعبد فهي مغلفة من الخارج بغلاف من الاجر،تزينه تحلية معمارية على شكل نظام الطلعات والدخلات في اوجهها الاربعة،وفي منتصف الضلع الجنوبي وجدت اثار السلالم،السلم الوسطي والسلالم الجانبية.

أي فكر هذا الذي جعلهم يستعملون فيه مبدأ تسليح طبقات اللبن بالحصران والقصب وحبال البردي المظفورة مع الزفت!!انهم بهذا حافظوا على ثبات البناء وصلادته حتى قاوم الزمن والفناء.

لقد قالوا لها في العام ١٩٩٣ انها ستسكن بجوار لأعظم زقورة في العراق في موقع يبعد عن بغداد ٢٠ كم.

من بعيد كانت ترنو الى اسوار المدينة المشيدة باللبن،والتي بنيت فوق طبقة صخرية كلسيةعلى حافة هور عقرقوف القديم ،لقد كان يخترق تلك الارض نهر من الشمال الى الجنوب ،ياخذ مياهه من نهر الفرات ، يسمى قناة انليل،قد يكون هو الان هو نفس نهر ابي غريب الحالي .

كانت تشعر بالخوف وهي ترى الصدع الكبير في الزقورة والذي بدأت معالمه بالظهور على الجانب المجاور للدكة الكبير!

كانت تتألم وهي ترى الاهمال الكبير الذي تعاني منه هذه المدينة التاريخية،وهي تعلم ان عليها واجبا ثقيلا ،هوالمحافظة على كل شيء في هذه المدينة، ولكن الامور هنا لاتجري على هواها دائما، لقد سرق بعضهم جزءا من سياج البي ار سي الذي كان يحيط بالمدينة من جميع اجزائها، ،انهى تخشى ان ذلك سيفتح عليها مشاكل جديدة هي في غنى عنها . اما الحدائق التي كانت تضفي شكلا جميلا على فضاء المدينة فقد بدأت بالذبول والموت.

هبت عاصفة ترابية،فتطايرت اوراق قديمة ،تعلق منها شيء على ثوبها الاسود،رفعته،كانت بقايا من غلاف كارتوني للحلوى التي كان الزائرون يجلبونها معهم، ابتسمت مع نفسها،لقد اصبح ذلك من الماضي فقد هجر الناس مثل هذه الاماكن، ليس بسبب الاهمال الذي تعانيه فقط ،بل نتيجة مهزلة الاوضاع الامنية في كل مكان .

وحتى هذه المدينة القديمة لم تسلم من ذلك ،وكثيرا ماكان يضايقها الاميركيون عندما يصلون هنا بسيارات الهامر التي تدخل الى ذلك المكان بحثا عن متمردين قد يختبئون في أي مكان.

في الماضي كانت الحفلات لاتنقطع عن هذه المدينة في جميع المناسبات،وكانت تلك الحفلات تعزية للمدينة الفريدة! لم يعد ياتي احد الى ذلك المكان حتى اصحاب المشاريع الين كانوا ياتون ليحصلوا على موافقة للبناء في أي مشروع على الاراضي الزراعية التي تقع ضمن مسؤوليتها. وهي في اعلى القمة نظرت الى منزلها،كان ابنها الصغير يقف وحيدا في الباب الخارجي للمنزل،فاتجهت اليه.

في الهيئة العامة للتراث والاثار في مكان آخر لا يبعد كثيرا عن كراج العلاوي،يمكنك مشاهدة ذلك المبنى الكبير،والذي يحمل اهمية كبرى للعالم كله،انه متحف الاثار العراقي الشهير بعد ان تدخل البوابة يفتشك عدد من الحراس لتتجه بعدها الى داخل المكان،والذي قد لايعجبك بنايته التي لاتتلاءم مع اهميته،وبعد ان تصل الى الداخل تكتشف ان المكان يعج بالموظفين ،لتاخذ طريقك الى دائرة التحريات والتنقيبات.

قال السيد عبد الحميد عكار،معاون المدير العام تلك الدائرة"ان الظروف القاسية التي يمر بها العراق،قد اضافت مزيدا من الاهمال على احوال مدينة كوريكالزو،ولكن رغم ذلك فانني متفائل ان تلك المدينة سوف تنهض من جديد،اذا عدت وزارة الثقافة خطة طموحة لتطويرها"

لقد عمل السيد عبد الحميد في مدينة عقرقوف ايضا منذ سنوات طويلة.وكان يعرف ان السنتين الاخيرتين قد زاد فيهما الاهمال بشكل يعرفه القاصي والداني.

اذ حل عنصر اشد فتكا من الرطوبة على الرقم الطينية القديمة!،انهم ازلام النظام الذين قد تعدوا على اجزاء كبيرة تابعة للمدينة ليحولوها الى مزارع لهم ،يتمتعون بها بكل ما لذ وطاب.

لقد كان يعلم انه كلما زاد (اهتمام)الدولة في امر ما ،فان هذا يعني تعرضه الى المزيد من عمليات التخريب وسوء الحال.لقد كان بعض اولاد المسئولين يتجولون بسيارتهم الفارهة داخل مدينة كوريكالزو نفسها ،وكان زوار المدينة يتضايقون من افعالهم.

ثم كانت الطامة الكبرى حينما قام شقيق صدام ،وطبان باقتطاع اجزاء كبيرة من الناحية الشرقية والشمالية للمدينة،لقد كانوا كالعث الفاسد الذي ينهش في كل شيء.

ولم يكن منهم من يعرف اهمية هذا المكان، اما خرافة المحافظة على المعالم الاثرية السياحية فكانت مثل كلام جرائد ذلك النظام!!

ثم تواصل التخريب في المدينة الى حد انهم جعلوها معسكرا للطوارئ ولتكديس الاسلحة وصواريخ ارض ارض ومنصاتها في عام ,١٩٩١

ثم كانت الأفكار العبقرية! التي تفتقت فيها اذهانهم في عمل خزانات كبيرة،أسموها الخزين الاستراتيجي في ذلك المكان،ليحتفظوا فيه بالنفط والبنزين،فتحولت المدينة الى ساحة حرب.

العصور الاسلامية

كان المتحف الصغير الذي انشأته دائرة الاثار انذاك في موقع مدينة عقرقوف نفسها قد اغلق حتى اشعار اخر،لقد كان يضم عددا من الاثار المكتشفة في عصور مختلفة، مما يدل على انها كانت مسكونة حتى العصور العباسية،حيث تم اكتشاف اواني زجاجية ومعدنية تعود الى تلك العصور.

يروي كتاب الكامل ان سويد بن سليم وهو احد اصحاب الحجاج الاموي قال له" لو تحولت يامولاي عن هذه القرية المشؤومة الاسم فقال الحجاج وهل تطيرت منها ايضا والله لااسير الى عدوي الا منها ،انما شؤمها على عدونا والعقر لهم ان شاء الله.

وذكر ذلك الاسم ايضا ابو نواس حينما قال(رحلن بنا من عقرقوف)(وقد بدا من الصبح مفتوق الاديم).

لاشك ان هذه المدينة كانت مسكونة حتى خلال العصور المتاخرة الاسلامية. وذكر بعض المؤرخين نهر عيسى المشهور الذي كان يجري قرب ارضها، كان الناس يعتقدون ان تلك ارض ممسوخة او ان النمرود قد سكن فيها!

اعمال التنقيب والصيانة

كان المرحوم الاستاذ طه باقر وهو صاحب الكتاب الرائع (مقدمة في تاريخ الحضارات العراقية) ، وذلك الرجل قد تعرض الى اهمال كبير ، وهو اول من اكتشف المعابد الخمسة التي تحيط بمصطبة مستطيلة كبيرة ترتفع عن الارض حولى الثلاثة امتار،كما انه قد اكتشف سلالم الزقورة الامامية

اما في تلك المرحلة الصدامية فكان التخريب والذي مازال لم يسلط الضوء على كثير من جوانبه،ولايعرف احد اسباب تردد البعض في ذلك !!

ابسط مثال على هذا ،تلك العلامات ،التي تشير الى اسم الطاغية ،على شكل حرفي (ص ح)

المحفورة في قطع من اللبن في اغلب المواقع الاثرية في كل انحاء العراق ،أي جنون بالعظمة هذا الذي يدفعه الى حشر نفسه في كل شيء ،ضنا منه انه سوف يخلد!

اما في الزقورة فقد كان الطابوق الذي استعمل في اعادة البناء يخرب المنظر القديم ،إلى ذلك فان الروتين والفساد الإداري قد خرب الكثير فكان المسؤولون يضعون سقفا زمنيا قصيرا للمشاريع لا يتناسب مع درجة اتقان العمل، وكل ما يهمهم ان يرضوا من هو أعلى مرتبة منهم، فكنت ترى الطابوق الحديث بمنظره الذي لايتلاءم مع قطع اللبن القديمة او الاجر المفخور الموغل بالقدم!

حتى انهم لم يصنعوا مجاري مناسبة في الجدران والتعديلات الحديثة التي قاموا بها في فترة التسعينات من اجل تصريف المياه.

ان عملية تكوين خميرة لبن ومعاملتها بالتبن والقصب وتعريضها للشمس ثم حرقها بافران خاصة ،وبكميات كبيرة تتطلب فترات قد تتجاوز عدد من السنين ،ولكن من يستطيع ان لاينفذ اوامر صادرة عن وزير الثقافة والاعلام آنذاك؟

قصة الكاشيين

القت منقبة الاثار التراب الذي كانت تفركه بيدها قبل برهة على الارض وقالت "لقد وصل الكاشيون، الى بلاد النهرين ، في زمن ابن الملك حمورابي (سمسو- ايلونا) الذي استطاع ان يطردهم منها،ولكنهم تابعوا الدخول الى البلاد عن طريق التجارة وخاصة تجارة الخيل التي عرفوا بها، انهم اقوام جبلية قد قدموا من مناطق هندو-أوروبية.

ثم تعرضت البلاد الى هجوم العيلاميين حينما انشأ ملكهم(ايلوما-ايلوم) جنوب بابل ،محاذية للخليج.ولكن من خلفوا ابن الملك حمورابي قد عانوا من الضعف وفي نحو(١٥٩٥ ق م) هاجم جيش الحيثين جنوب بابل واخذوا اهلها أسرى ونهبوا الاموال،وتمزقت المملكة،واصبح البابليون خاضعين لحكمهم،ولكن لفترة قصيرة.

وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد حكم اول قائد كاشي يسمى (اكوم) بابل وامتدت مملكته من نهر الفرات الى جبال زاكروس. واستمر حكمهم اربع قرون ونصف، وفي نحو ١٢٢٥ ق.م سيطر الملك الاشوري توكولتي-نينورتا والذي اضعف القوة السياسية للملكة الكاشية هناك، حتى هزيمتهم أمام الملك العيلامي شتروك – ناهونتي الاول الذي وضع ابنه على العرش

وقد يكون الكاشيون استعملوا لغة السومرين انفسهم، ويقول الباحثون ان لغتهم ليست هندو-اوربية او حتى لغة سامية نظرت المنقبة الى المستويات السفلى من جدران المعبد،كان العمل في الستينات لاباس به،وكان منظره مقبولا،اما في فترة التسعينات، فكان ان العمل فيها كبيرا ورصدت له اموال كثيرة، وتم اعادة صيانة المعابد الخمسة الا ان التخصيصات المالية بعد عام ١٩٩١ بدات بالتضاؤل ،حتى اقتصر العمل على منطقة ابوشجر التي تم العثور فيها على لقى كثيرة ورقم طينية تؤرخ الى ذلك العصر.

القصور

لقد كانت تنظر الى القصور التي يعتقد ان الملوك الكاشيين قد شيدوها قبل كل شيء ثم بنوا بعد ذلك المعابد والزقورة،لانها تحتاج الى وقت اطول.

كانت تتخيل الملك كنداش (١٦٨٠-١٦٦٥)وهو احد الملوك الستة والثلاثين الذين حكموا تلك البلاد،وقد اخذ ذلك الملك يتقدم الى جهة القصر الابيض، او وهو يتجول في قصره الذي ضم غرفا عديدة مستطيلة الشكل، كان هنالك ثلاث غرف في كل جانب،وهنالك دهليز يحيط به من جانبيه غرف صغيرة مسقفة.اما غرف السلم فهي تسيطر على مبنى القصر كله،وتشكل المرتقى الى الحصون الشبيه بالابراج. يخيل لها كيف كانت النساء الكاشيات تعمل في الزوايا الشرقية هنا في القصر، والتي كانت تستخدم انذاك لاغراض منزلية ،نعم لايزال الكثير من الغموض يحيط بتلك القصور،لقلة التنقيبات فيها.

التلول

ابتعدت عن موقع الزقورة واتجهت الى الغرب منها، الى منطقة التلال التي تبعد حوالي الف متر عن زقورة المعبد،انه تل ابو شجر،هكذا يسميه الناس هناك لانه يقع بين بساتين واشجار كثيفة تحيط به من كل جانب ، وهو يرتفع عن الارض مسافة سبعة امتار لقد تم اكتشاف لقى اثرية فيها، صحون واواني ورقم طينية ولقى اخرى. وقد كشفت ربع مساحة ذلك التل وقد يكون معبدا اخر.

ثم توجهت الى تل اسمرالاول الذي تبلغ مساحته سبعة دوانم وارتفاعة خمسة امتار وقد عثر على سطحه كسر من الفخار، اما تل اسمر الثاني فمساحته خمسة دوانم وارتفاعة خمسة امتار . اما تل ضعينة فمساحته ستون دونم وارتفاعه من واحد-الى اثنين مترا تتخللها اراضي مستوية تحيط بها مزارع ودور للاهالي وهو محاط باعمدة كونكريتية،متصلة بموقع الزقورة، ويفصله عنها نهر كبير وهو غير منقب.وتل الفرس الاول الصغير الذي يقع في مقاطعة عبادي هور الباشا ومساحته دونم واحد وارتفاعه (٢-٥،٢) وتحيط به اراضي زراعية.

المعابد

في المعابد الارضية مساحات كبيرة يحيط بها عدد كبير من الحجرات والممرات والاروقة، لقد خيل لها كانها تراى اولئك القوم وهم يمارسون طقوس عبادة الاله انليل وزوجته ننليل،اله الجو والعواصف والسحاب عند السومرين،وقد يكون السبب في ذلك، تطابق صفاته مع صفات الاله تيشوب كانت تحب ان تتجول في معبد السيد الكبير،فهاهنا كانت الطقوس والشعائر الدينية يتم عقدها ،وهنا ياتي رجال الدين المتنفذين، او المتخصصون بالأضاحي وكذلك الموسيقيون والسحرة والمتنبئون ومفسرو الاحلام والنساء التي كرسن انفسهم لخدمة الالهة ورجال الدين وفي اخر السلم ياتي عبيد المعابد.

اما التضحيات فكانت تتألف من الحيوانات ومحاصيل زراعية ومن الخمر والبخور.

يتم عقد الاحتفالات كل شهر ولكنه الاهم هو الاحتفال في بداية كل سنة جديدة واحتفالات الزواج المقدسة ومراسيم تنصيب الملوك.

وتنظر الى جدران اللبن الذي تفوح منه رائحة عمرها يتجاوز الالاف،لقد كان ذلك المعبد الى جانب دوره المهم في العبادة يمثل وزارة التجارة في لغتنا العصرية لان الفلاحين انذاك كان يخزنون فيه ما فضل من محاصيل وحبوب، وهو مكان اجتماعي يلتقي فيها اناس ذلك الزمان في اوقات الاحتفالات وايام الاعراس ان جميع المعابد هي من نوع البناء ذي المساحة المكشوفة والتي تكثر فيها او امام مداخلها الخارجية والداخلية الرئيسة،دكاك المذابح والقرابين والتي تقدم الى الاله،من دون صومعة،لان تماثيل الاهلة كانت تنصب فوق المصطبة بين الزقورة والمعابد.

القت ببصرها الى المصطبة او الدكة، المغلفة بالاجر والمحلاة بالطلعات والدخلات وهي تقع بين الزقورة والمعابد

تجاوزات جديدة

نادت على صاحب قطيع غنم اراد ان يمر من داخل المدينة وزجرته حتى يبتعد من هنا ،انهم يشكلون مشكلة لها دائما ،انهم لاينفكون عن ارسال تلك القطعان الى داخل حدائق المدينة ، لايفهمون انه ليس من حقهم عمل ذلك. وعندما مرت مابين الدكة الكبيرة والمعابد هالها ما رأت،كان هنالك اربعة او خمسة اماكن على الجدران القديمة تعرضت الى التخريب،لقد كانت لوحات مكتوبة بخط مسماري ،لقد احزنها ذلك كثيرا.هل تستطيع ان توقف هذا الجنون؟

نهاية الجولة

كانت تتمنى ان تعود ايام مدينة عقرقوف حيث السفرات المدرسية والحفلات لاتنقطع عنها ابدا،من جميع انحاء بغداد صبية ينزلون على عجل ليرتقوا السلالم ويستنطقوا الاثار القديمة ببشراتهم الفتية علهم يعرفون شيئا عنها.
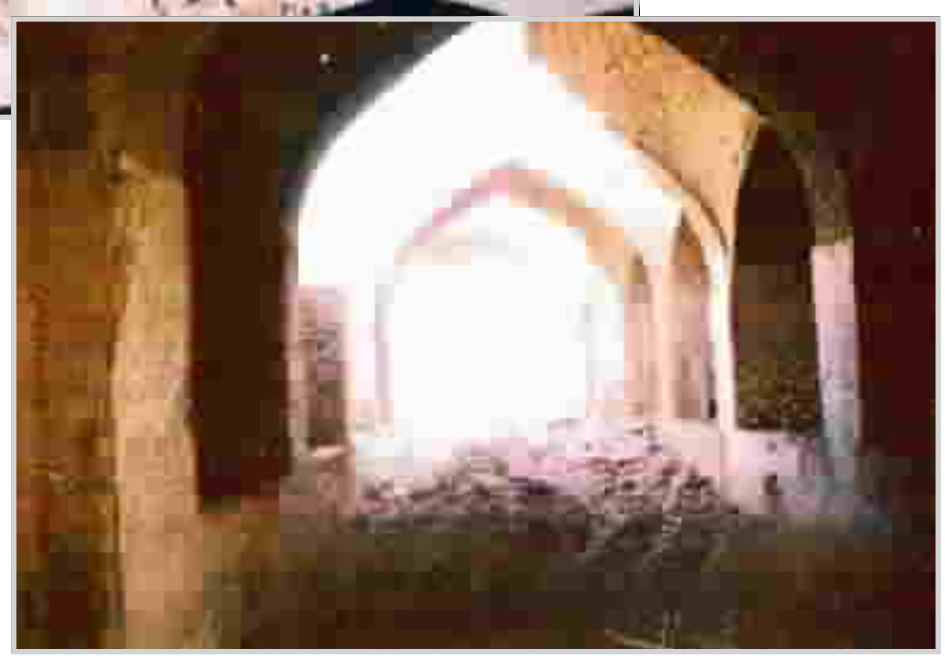
هذا ماكانت تامله،ان يقدر الجيل الجديد اهمية التاريخ بشكل يحبونه هم،لا ان يفرض عليهم فرضا، بعد لحظات وصلها صوت ابنها وهو يقول : "اماه انظري هناك ثمة سيارة قادمة"، لم تصدق عينيها،نعم لقد وصلت سيارة، تحمل عددا من الزوار.اسرعت اليهم لتستقبلهم.